الحسن البصري

الواعظ البكّاء

محمد خير يوسف

دار ابن حزم

الحسن البصري

الواعظ البكّاء

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين
والصلاة والسلام على نبيّنا محمد
وعلى آله وأصحابه أجمعين

الحسن البصري

الواعظ البكّاء

محمد خير يوسف

دار ابن حزم

جَمِيع الحُقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤١٤هـ - ١٩٩٤م

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان - ص.ب: ١٤/٦٣٦٦ - تلفون: ٨٣١٣٣١

جملة من مواعظه

يا ابن آدم!
عملَك عملَك!
فإنما هو لحمُكَ ودمُكَ.
فانظر على أيِّ حالٍ تلقى عَمَلك.
إن لأهل التقوى علامات يُعرفون بها:
صدقُ الحديث، ووفاءٌ بالعهد، وصلةُ الرَّحِم، ورحمةُ الضعفاء، وقلّةُ المباهاة للناس، وحسنُ الخَلْق، وسَعَةُ الخُلُق فيما يقرِّب إلى الله.

يا ابن آدم!
إنك ناظرٌ إلى عملكَ يُوْزَنُ خيرُه وشرُّه.
فلا تحقرنَّ من الخير شيئاً وإن صَغُر!
فإنك إذا رأيته سَرَّك مكانُه.

ولا تحقرنَّ من الشرِّ شيئاً، فإنك إذا رأيته ساءك مكانُه.

رحم الله رجلاً كسبَ طيباً، وأنفق قَصْداً، وقدَّم فضلاً ليوم فقره وفاقته.

هيهات هيهات!!

ذهبت الدنيا بحال بالها، وبقيت الأعمالُ قلائد في أعناقكم.

أنتم تسوقون الناس، والساعةُ تسوقكم.
وقد أُسْرِعَ بخياركم، فماذا تنتظرون؟!

المعاينةُ فكأنْ قد!

إنه لا كتاب بعد كتابكم، ولا نبيَّ بعد نبيِّكم.

يا ابن آدم!

بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعاً، ولا تبيعنَّ آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعاً.

يا ابن آدم!

إنما أنت أيام! كلما ذهب يومٌ ذهب بعضك.

● لقد أدركتُ أقواماً ما كانوا يفرحون بشيء من الدنيا أقبل، ولا يتأسفون على شيء منها أدبر، ولهي كانت أهون في أعينهم من هذا التراب.

● إن المؤمن لا تراه إلاَّ يلوم نفسه: يقول: ما أردتُ بكلمتي؟ يقول: ما أردت بأكلتي؟ ما أردتُ بحديث نفسي؟ فلا تراه إلاَّ يعاتبها.

وإن الفاجر يمضي قدماً، فلا يعاتب نفسه!

● ليأتينَّ أناسٌ يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال، فما يزال يؤخذ منها لمن ظَلَمهم، حتى يبقى مفلساً يُفْتَلُ إلى النار!

● إذا رأيتَ الرجلَ ينافس في الدنيا، فنافسه في الآخرة.

● لا تزال كريماً على الناسُ، ولا يزال الناسُ يكرمونك ما لم تتعاط ما في أيديهم؛ فإذا فعلتَ ذلك استخفُّوا بك، وكرهوا حديثك وأبغضوك.

● أحبوا هوناً وأبغضوا هوناً، فقد أفرط أقوام في حبِّ أقوام فهلكوا، وأفرط أقوام في بغض أقوام فهلكوا.

● لو لم يكن لنا ذنوب نخاف على أنفسنا منها إلاَّ حبنا الدنيا، لخشينا على أنفسنا منها، إن الله عز وجل يقول: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾[1]. أَريدوا ما أراد الله عز وجل.

● كان الرجل إذا طلب العلم، لم يلبث أن يُرى ذلك في بصره وتَخشُّعه ولسانه ويده وصلاته وصِلته وزهده.

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٦٧.

● لقد رأيت أقواماً، كانت الدنيا أهونَ على أحدهم من التراب تحت قدميه.

ولقد رأيتُ أقواماً يُمسي أحدهم وما يجد عنده إلاَّ قوتاً، فيقول: لا أجعل هذا كله في بطني، لأجعلنَّ بعضه لله عز وجل. فيتصدَّق ببعضه، وإن كان هو أحوج ممن يتصدَّق به عليه!

● إن الدنيا دار عمل؛ من صحبها بالنقص لها والزهادة فيها سعد بها ونفعته صحبتها، ومن صحبها على الرغبة فيها والمحبة لها شقي بها..

● لم أسمع الله تعالى فيما عهد إلى عباده، وأنزل عليهم في كتابه: رغَّبَ في الدنيا أحداً من خلقه، ولا رضي له بالطمأنينة فيها، ولا الركون إليها، بل صرف الآيات وضرب الأمثال بالعيب لها.. ورغب في غيرها.

● لا يزداد المؤمن صلاحاً وبراً وعبادة إلاَّ ازداد خوفاً، يقول: لا أنجو!

والفاسق يقول: سواد الناس كثير، وسيُغْفر لي، ولا بأس علي! فيؤجل العمل، ويتمنى على الله تعالى!

● والله لقد عبدت بنو إسرائيل الأصنام بعد عبادتهم للرحمٰن تعالى بحبهم الدنيا.

● والله ما صدَّق عبدٌ بالنار إلاَّ ضاقت عليه الأرضُ بما رحبت. وإن المنافق لو كانت النار خلف هذا الحائط لم يصدِّق بها حتى يتهجَّم عليها فيراها!!

● إن القلوب تموت وتحيا. فإذا ماتت فاحملوها على الفرائض، فإذا هي أُحييت فأدِّبوها بالتطوع.

● والله ما المؤمن بالذي يعمل شهراً أو شهرين، أو عاماً أو عامين، لا والله ما

جعل الله لعمل المؤمن أجلاً دون الموت.

● إن الرجل يذنب الذنب فما ينساه، وما يزال متخوفاً منه حتى يدخل الجنة!

● إن المؤمن إذا طلب حاجة، إن تيسَّرتْ قَبِلَها بميسور الله عز وجل وحمد الله عليها، وإن لم تتيسَّر تركها ولم يُتبعها نفسه.

● نعمت الدار كانت الدنيا للمؤمن، وذلك أنه عمل قليلاً وأخذ زاده منها إلى الجنة، وبئست الدار كانت للكافر والمنافق، وذلك أنه تمتَّع ليالي، وكان زادُه منها إلى النار.

● إن المؤمن قوَّام على نفسه، يحاسب نفسه لله عز وجل، وإنما خفَّ الحسابُ يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شقَّ الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة..

● . . تصبَّروا وتشدَّدوا، فإنما هي ليال تُعَدُّ، وإنما أنتم ركبٌ وقوفٌ، يوشك أن يُدعى أحدكم فيجيب ولا يلتفت! فانقلبوا بصالح ما بحضرتكم. إن هذا الحقَّ أجهدَ الناس، وحال بينهم وبين شهواتهم، وإنما صَبَر على هذا الحق من عَرَف فضله، ورجا عاقبته.

● ويحك يا ابن آدم! هل لك بمحاربة الله طاقة؟ إنه من عصى فقد حاربه!

● ● ●

طرف من سيرته

كان ذلك غيضاً من فيض، من مواعظ الإمام العالم الحسن بن يسار البصري، الذي ولد لسنتين بقيتا من خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، في المدينة المنورة.

وكانت أمه «خَيْرة» مولاةَ «أم سلمة» زوجة النبي ﷺ، متفرغة لها.. فكانت تبعث أم الحسن في حاجة لها، فيبكي وهو صبي، فتعطيه أم سلمة ثديها، تعلله به إلى أن تجيء أمه.

وكانت رضي الله عنها تخرجه إلى أصحاب رسول الله ﷺ وهو صغير، فكانوا يدعون له. فأخرجته إلى عمر بن الخطاب، فدعا

له، فقال: اللهم فقِّهه في الدين، وحبِّبه إلى الناس.

ويتذكر الإمام الحسن بعض ذكرياته فيقول: كنتُ أدخل بيوت أزواج النبي ﷺ في خلافة عثمان بن عفان، فأتناول سقف البيت بيدي.

ويقول: رأيت عثمان نائماً في المسجد، حتى جاءه المؤذن، فقام، فرأيت أثر الحصى على جنبه!

وكان رحمه الله متأثراً بفضائل الصحابة رضوان الله عليهم وأخلاقهم.. وكان دائم التذكير بسيرتهم، ويدعو الناس إلى التأسِّي بهم.. وكان أشبه الناس بهم وبدعوتهم..

وصفه ابن سعد في طبقاته بقوله: كان جامعاً، عالماً، عالياً، رفيعاً، فقيهاً، ثقة،

مأموناً، عابداً، ناسكاً، كبير العلم، فصيحاً، جميلاً، وسيماً!

وكان يلبس في الشتاء قَبَاءً حِبَرة[1] وطيلساناً[2] كردياً، وعمامة سوداء. وفي الصيف: إزارَ كتَّان، وقميصاً، وبُرْداً حِبَرة[3] . .

قال مهدي بن ميمون: وكان الحسن لا يضع العمامة صيفاً ولا شتاء إذا خرج إلى الناس.

وكان وقوراً مهيباً!

قال عاصم الأحول: قلت للشعبي: إنني مسافر فهل لك من حاجة؟

قال: نعم، إذا أتيت البصرة، فأقرىء الحسن مني السلام.

قلت: ما أعرفه.

---

(١) القَبَاء: ثوب يُلبس فوق الثياب أو القميص، ويُتمنطق عليه. وحِبَرة: مخطط. .

(٢) الطالسان أو الطيلسان: هو الشَّال.

(٣) البُرْد: كساء مخطط يُلتحف به.

قال: إذا دخلتَ البصرة، فانظر إلى أجمل رجل تراه في عينيك، وأهيبه في صدرك، فأقرئه مني السلام!

قال الراوي: فما عدا أن دخل عاصم المسجد، فرأى الحسن والناس حوله جلوس، فأتاه وسلم عليه.

وقال الإمام الذهبي: كان رجلاً تام الشكل، مليح الصورة، بهياً. وكان من الشجعان الموصوفين!

وقال جعفر بن سليمان: كان الحسن من أشد الناس! وكان المهلب بن أبي صفرة إذا قاتل المشركين يقدِّمه!

وقال الأصمعي عن أبيه: ما رأيت زنداً أعرض من زند الحسن، كان عَرْضُه شبراً!

وذكر ابن سعد أنه غزا مع عبد الرحمٰن بن سَمُرة كابُل والأَنْدُقَان والأَنْدغان وزابُلِسْتان

ثلاث سنين.

وكان رحمه الله زاهداً في الحياة، محباً لأصحابه، طيب المعشر..

عن مطر قال: دخلنا على الحسن نعوده، فما كان في البيت شيء! لا فراش، ولا بساط، ولا وسادة، ولا حصير.. إلاَّ سرير مرمول هو عليه[1]!

ويُروي قتادة حادثة فريدة مع الإمام الحسن فيقول:

دخلنا على الحسن وهو نائم، وعند رأسه سلة، فجذبناها، فإذا خبز وفاكهة، فجعلنا نأكل! فانتبه، فرآنا، فسرَّه، فتبسَّم وهو يقرأ: ﴿.. أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾[2].

---

(١) السرير المرمول: الذي نُسج وجهه بالسَّعف، ولم يكن على السرير وطاء سوى الحصير.

(٢) سورة النور: الآية ٦١.

ويذكر أبو سعيد بن الأعرابي أن حلقته في المسجد كان يمرُّ فيها الحديث والفقه وعلوم القرآن واللغة وسائر العلوم.. وكان منهم من يصحبه للحديث، ومنهم من يصحبه للقرآن والبيان، ومنهم من يصحبه للبلاغة، ومنهم من يصحبه للإخلاص..

وقال الأشعث: كنا إذا أتينا الحسن لا نسأل عن خبر ولا نخبر بشيء، وإنما كان في أمر الآخرة..

وقد اشتُهر قول أنس رضي الله عنه عندما سُئل عن مسألة فقال: سَلُوا مولانا الحسن، فإنه سمع وسمعنا، فحفظ ونسينا..

وهذا يدل على علمه وجلالة قدره..

وكان رحمه الله في أول عهده كاتباً للربيع بن زياد الحارثي والي خراسان في عهد معاوية بن أبي سفيان..

وكان مفتي البصرة أبو الشعثاء جابر بن زيد، ثم جاء الحسن، فكان يُفتي.

قال أبو حرَّة: وكان الحسن لا يأخذ على قضائه أجراً.

وقد روي أن أعرابياً سأل أهل البصرة: من سيدكم؟ قالوا: الحسن. قال: بم سادكم؟ قالوا: احتاج الناس إلى علمه، واستغنى هو عن دينارهم. فقال الأعرابي: ما أحسن هذا!

• • •

قالوا في هذا الإمام

ـ عن بلال بن أبي بردة قال: سمعت أبي يقول: والله لقد أدركتُ أصحاب محمد ﷺ، فما رأيت أحداً أشبه بأصحاب محمد من الحسن.

ـ قال أبو قتادة العدوي: ما رأيتُ أحداً أشبه رأياً بعمر بن الخطاب من الحسن.

ـ وقال عمرو بن مُرَّة: إني لأغبط أهل البصرة بهذين الشيخين: الحسن ومحمد بن سيرين.

ـ وقال يونس بن عُبيد: إنْ كان الرجلُ ليَرىٰ الحسن، ولا يسمع كلامه، ولا يرى عمله، فينتفع به!

ـ وعن قتادة: ما جالستُ فقيهاً قطُّ إلاَّ رأيت فضلَ الحسن عليه.

ـ وعن معبد الجهني: لقيتُ العلماء، ولقيتُ الناس، فلم أر مثل الحسن.

ـ وعن الأشعث: ما لقيتُ أحداً بعد الحسن إلاَّ صَغُر في عيني.

ـ وعن بكر بن عبد الله المزني: من سَرَّه أن ينظر إلى أعلم عالم أدركناه في زمانه، فلينظر إلى الحسن.

وقال قتادة: كان الحسن من أعلم الناس بالحلال والحرام.

ـ وقال مُطَرِّف بن الشِّخير: لا أؤمِّنُ على دعاء من لا أعرفه، إلاَّ على دعاء الحسن، فإني أثق به.

ـ وقال إبراهيم بن عيسى اليشكري: ما

رأيتُ أحداً أطول حزناً من الحسن، وما رأيته قط إلاَّ حسبتُه حديثَ عهد بمصيبة!

وعن الربيع بن صبيح قال: كان الحسن إذا أثنى عليه أحد في وجهه كره ذلك، وإذا دعا له سَرَّه ذلك.

• • •

تجارب وعبر..

● كان عمر بن هبيرة والياً على العراق.. وقد أرقه ذات مرة أمر أراد أن يعرف حكم الشرع فيه. فاستأذن أن يدخل على الحسن البصري والشعبي، ثم فاتحهما بالموضوع وقال:

إن أمير المؤمنين يزيد بن عبد الملك يكتب إليَّ بأوامر، أعرف أن في إنفاذها الهلكة! فإن أطعتُه عصيتُ الله، وإن عصيتُه أطعتُ الله، فهل تريا لي في متابعتي إياه فَرَجاً؟

فكان جواب الإمام الحسن:

أقول يا عمر بن هبيرة، يوشك أن ينزل بك مَلَكٌ من ملائكة الله فظٌّ غليظٌ لا يعصي الله

ما أمره، فيُخرجك من سَعَة قصرك إلى ضيق قبرك!

يا عمر بن هبيرة!

إن تتقِ الله يَعْصِمْكَ من يزيد بن عبد الملك، ولن يَعْصِمَكَ يزيد بن عبد الملك من الله.

يا عمر بن هبيرة! لا تأمن أن ينظر الله إليك على أقبح ما تعمل في طاعة يزيد بن عبد الملك نظرة مقتٍ، فيغلق بها باب المغفرة دونك.

يا عمر بن هبيرة! لقد أدركتُ ناساً من صدر هذه الأمة كانوا والله عن الدنيا وهي مقبلة أشدَّ إدباراً من إقبالكم عليها وهي مدبرة.

يا عمر بن هبيرة! إني أخوفك مقاماً خوَّفك الله تعالى، فقال: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾[1].

---

(١) سورة إبراهيم: الآية ١٤.

يا عمر بن هبيرة! إنْ تكُ مع الله في طاعته كفاك بائقة يزيد بن عبد الملك، وإن تك مع يزيد بن عبد الملك على معاصي الله وكَلَكَ الله إليه.

فبكى ابن هبيرة، وقام بِعَبْرَته.

● دخل الحسن المسجد ومعه فرقد، فقعد إلى جنب حلقة يتكلمون، فنصت لحديثهم، ثم أقبل على فرقد فقال: يا فرقد، والله ما هؤلاء إلاَّ قوم ملُّوا العبادة ووجدوا الكلام أهون عليهم، وقلَّ ورعهم فتكلموا!

● استعان رجل بالحسن في حاجة، فخرج معه، فقال للحسن: إني استعنت بابن سيرين وفرقد فقالا: حتى نشهد الجنازة ثم نخرج معك. فقال الحسن: أما إنهما لو مشيا معك لكان خيراً من حضورهما الجنازة.

● عن جرير بن حزم قال: كنا عند الحسن

وقد انتصف النهار وزاد، فقال ابنه: خفُّوا عن الشيخ، فإنكم قد شققتم عليه، فإنه لم يطعم طعاماً ولا شراباً.

فقال الحسن لابنه: صه ــ وانتهره ــ، دعهم، فوالله ما شيء أقرَّ لعيني من رؤيتهم.

وأورد الإمام أحمد في كتاب الزهد، عن خالد بن شوذب قال: رأيتُ فرقد السبخي وعليه جبة صوف، فأخذ الحسن بجبته ثم قال: يا فرقد ــ مرتين أو ثلاثة ــ إن التقوى ليست في هذا الكساء، إنما التقوى ما وقر في القلب وصدقه العمل والفعل.

● وأورد أيضاً أن الإمام الحسن كان في السوق، فرأى لَغَطَ أهل الأسواق، فقال: أما يَقِيل هؤلاء؟ ما أظن ليل هؤلاء إلاَّ ليل سوء!

● ● ●

أسئلة.. وأجوبتها

* قام المغيرة بن مخادش ذات يوم إلى الحسن فقال: كيف نصنع بأقوام يخوفوننا حتى تكاد قلوبنا تطير؟

فقال الحسن: والله لئن تصحب أقواماً يخوفونك حتى يُدرِكك أمنٌ، خيرٌ لك من أن تصحب أقواماً يؤمِّنونك حتى تلحقك المخاوف.

* عن عمران القصير قال: سألتُ الحسن عن شيء فقلت: إن الفقهاء يقولون كذا وكذا..

فقال الحسن: وهل رأيت فقيهاً بعينك؟ إنما الفقيه: الزاهد في الدنيا، البصير بدينه، المداوم على عبادة ربه.

* قال له شاب: قد أعياني قيام الليل.

فقال: قيدتك خطاياك.

* عن إياس بن أبـي تميمة قال: شهدتُ الحسن في جنازة أبـي رجاء وهو راكب بغلة، والفرزدق إلى جنبه على بعير، فقال له الفرزدق: قد استشرفَنا الناس، يقولون: خيرُ الناس وشرُّ الناس.

قال: يا أبا فراس، كم من أشعث أغبر ذي طمرين خيرٌ مني، وكم من شيخ مشرك أنت خيرٌ منه. ما أعددتَ للموت؟

قال: شهادة أن لا إلَه إلاَّ الله.

قـال: إن معهـا شـروطـاً، فـإيـاك وقـذف المحصنة.

قال: هل من توبة؟

قال: نعم.

* عن إبـراهيـم بن عيسى اليشكري قال:

سمعتُ الحسن إذا ذُكر صاحب الدنيا يقول: والله ما بقيت الدنيا ولا بقي لها، ولا سلم من تبعتها وشرِّها وحسابها.

* عن مالك بن دينار قال: سألت الحسن: ما عقوبة العالِم؟

قال: موت القلب.

قلت: وما موت القلب؟

قال: طلبُ الدنيا بعمل الآخرة.

* عن سلام بن مسكين قال: سُئل الحسن: يا أبا سعيد، هل ينام إبليس؟

قال: لو نام لوجدنا لذلك راحة!

* عن المعلى بن زياد قال: قال رجل للحسن: يا أبا سعيد أشكو من قسوة قلبي.

قال: ادنه من الذكر. أي: ممن يذكِّر.

* قال معاوية بن قُرَّة: سأل بعضنا بعضاً: أي العبادة أشد؟

فقال قائل منا: أشد العبادة الجهاد في سبيل الله.

وقال قائل: أشد العبادة الصلاة.

وقال قائل: أشد العبادة الزكاة.

وقال قائل: الصيام.

قال ابن قَرَّة: فقلت بيني وبين نفسي: لأكلمنَّ الحسن في ذلك.

فأتيته فقلت: يا أبا سعيد، إني لم أجد من العبادة أشدَّ من الورع.

فقال: .. وهل يُنتفع بشيء من هذا إلاَّ بالورع؟

ثم قال الحسن: إني لم أجد من العبادة شيئاً أشدَّ من الصلاة في جوف هذا الليل.

* وعن هشام بن حسان قال: ذكروا التواضع عند الحسن وهو ساكت. حتى إذا

أكثروا عليه قال: أراكم قد أكثرتم الكلام في التواضع!

قالوا: أيُّ شيء التواضع يا أبا سعيد؟

قال: يخرج المرء من بيته، فلا يلقى مسلماً إلاَّ ظنَّ أنه خيرٌ منه.

* وعن عبد الواحد بن زيد قال: قلت للحسن: يا أبا سعيد، أخبرني عن رجل لم يشهد فتنة ابن المهلب، إلاَّ أنه قال بلسانه ورضي بقلبه؟!

قال الحسن: يا ابن أخي، كم يداً عقرت ناقة صالح؟

قال: يد واحدة.

قال: أليس قد هلك القوم جميعاً برضاهم؟!

• • •

البكاء

عن حمزة الأعمى قال: ذهبتْ بي أمي إلى الحسن، فقالت: يا أبا سعيد، ابني هذا قد أحببتُ أن يَلْزَمَك، فلعل الله أن ينفعه بك.

قال: فكنت أتردد عليه، فقال لي يوماً: يا بني، أَدِمِ الحزن على خير الآخرة، لعله يوصلك إليه. وابكِ في ساعات الخلوة، لعلَّ مولاك يطّلع عليك فيرحمَ عَبْرَتك، فتكون من الفائزين.

قال: وكنتُ أدخل عليه منزله وهو يبكي، وآتيه مع الناس وهو يبكي، وربما جئتُ وهو يصلي فأسمع بكاءه ونحيبه!

قال: فقلت له يوماً: يا أبا سعيد، إنك لتكثر البكاء؟!

قال: فبكى ثم قال: يا بني، فما يصنع المؤمن إذا لم يبكِ؟

يا بني، إن البكاء داع إلى الرحمة، فإن استطعتَ أن لا تكون عمركَ إلاَّ باكياً فافعل، لعله يراك على حالة فيرحمك بها، فإذا أنتَ قد نجوت من النار!

● وقال رجل للحسن: أوصني. فقال له: رطِّب لسانك بذكر الله، وندِّ جفونك بالدموع من خشية الله..

● عن مالك بن دينار قال: دخلتُ مع الحسن السوق، فمرَّ بالعطارين، فوجد تلك الرائحة الطيبة، فبكى، ثم بكى، ثم بكى، حتى خفتُ أن يُغشىٰ عليه، ثم قال لي: يا مالك، والله ما هو إلاَّ حلول القرار من الدارين جميعاً: الجنة أو النار؛ ليس هناك منزل ثالث. من أخطأته ــ والله ــ الرحمةُ، صار إلى عذاب الله.

قال: ثم جعل يبكي، فلم يلبث بعد ذلك يسيراً حتى مات.

● وكان الحسن إذا حدَّث بحديث حنين الجذع إلى رسول الله ﷺ، بكى ثم قال: يا عباد الله، الخشبة تحنُّ إلى رسول الله ﷺ شوقاً إليه، فأنتم أحقُّ أن تشتاقوا إلى لقائه.

● قال مسمع: لو رأيت الحسن لقلت قد بُثَّ عليه حزن الخلائق، من طول تلك الدمعة، وكثرة ذلك النشيج!

● وقال يزيد بن حوشب: ما رأيتُ أخوف من الحسن وعمر بن عبد العزيز، كأن النار لم تُخلق إلاَّ لهما!

● وقال الربيع بن صبيح: ما دخلتُ على الحسن إلاَّ وجدته مستلقياً يبكي!

● وحدَّث الهيثم الصيرفي عن والده قال:

أتيتُ الحسن سنةً، فما أخطأني يومٌ آتيه إلاَّ وأنا أرى دموعه تجري على لحيته!

● وعن يونس بن عبيد قال: كنا ندخل على الحسن، فيبكي حتى نرحمه!

● وقال منصور بن زاذان: كان الحسن ربما بكى حتى نَرِقَّ له!

● وعن شعيب ـ صاحب الطيالسة ـ قال: رأيت الحسن يقرأ القرآن، فيبكي حتى ينحدر الدمع على لحيته.

● وعن هشام بن حسان الأزدي قال: انطلقتُ أنا ومالك بن دينار إلى الحسن، فانتهينا إليه وعنده رجل يقرأ، فلما بلغ هذه الآية: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ۝٨﴾[1]، بكى الحسن، وبكى أصحابه، وجعل مالك يضطرب حتى غُشي عليه!

---

(١) سورة الطور: الآيتان ٧، ٨.

● وعن عبيد الله العَيْزار قال: ما رأيت الحسن إلاَّ وعليه كآبة، كأنه رجل أُصيب بمصيبة. فإن ذَكَر الآخرة، أو ذُكرتْ بين يديه، جاءت عيناه بأربع!

● وحدَّث أبو همام يحيى بن دينار قال: كان الحسن إذا تكلم شفى النفوس من إسبال الدموع. قال: وما قعدتُ إليه يوماً قط إلاَّ بكيتُ حتى اشتُفيت!

● وقال عبد الواحد بن زيد: لو رأيتَ الحسن إذا أقبل لبكيتَ لرؤيته من قبل أن يتكلم!

ومن ذا الذي كان يرى الحسن فلا يبكي؟

ومن كان يقدر يملك نفسه عن البكاء عند رؤيته؟

ثم بكى عبد الواحد بكاءً شديداً.

● ● ●

وفاته

بعد كل هذه الدعوة المباركة، والجهاد الطويل، يذكر سلاَّم بن مسكين أنه دخل مع آخرين على الحسن وهو مريض، قال: فلحظ إلينا لحظة فقال: لو أن ابن آدم أخذ من صحته ليوم سقمه!

فماذا نحن قائلون؟ وماذا نحن فاعلون؟!

ولمَّا حضره الموت، دخل عليه رجال من أصحابه فقالوا له: يا أبا سعيد، زوِّدنا منك كلمات تنفعنا بهن.

قال: إني مزودكم ثلاث كلمات، ثم قوموا عني، ودعوني ولما توجهتُ له:

ـ ما نُهيتم عنه من أمر فكونوا من أترك الناس له.

ـ وما أُمرتم به من معروف فكونوا من أعمل الناس به.

ـ واعلموا أن خُطاكم خطوتان: خطوة لكم، وخطوة عليكم، فانظروا أين تغدون وأين تروحون.

قال الإمام الذهبي: توفي سنة ١١٠هـ وله من العمر (٨٨) عاماً. وكانت جنازته مشهودة، صلوا عليه عقيب الجمعة بالبصرة، فشيَّعه الخَلق، وازدحموا عليه، حتى إن صلاة العصر لم تُقم في الجامع!

• • •

درر من حكمه ونصائحه

* لا تجالسوا أصحاب الأهواء، ولا تجادلوهم، ولا تسمعوا منهم.

* يحقُّ لمن يعلم أن الموتَ موردُه، وأن الساعة موعده، وأن القيام بين يدي الله تعالى مشهده: أن يطول حزنه.

* صاحب الدنيا بجسدك، وفارقها بقلبك، وليزدك إعجابُ أهلها بها زهداً فيها وحذراً منها، فإن الصالحين كذلك كانوا.

* فضح الموتُ الدنيا، فلم يترك لذي لبٍّ فرحاً.

* فضل الفِعال على المقال مكرمة، وفضل المقال على الفعال منقصة.

* أهينوا هذه الدنيا، فوالله لأهناً ما تكون إذا أهنتموها.

* ضحكُ المؤمن غفلةٌ من قلبه.

* المؤمن في الدنيا كالغريب، لا يجزع من ذلها ولا يأنس في عزها. للناس حال وله حال.

* شرُّ داء خالط قلباً: الهوى.

* أفضل العلم: الورع والتوكل.

* إن المؤمن أخذ عن الله أدباً حسناً: إذا وسَّع عليه أوسع، وإذا أمسك عليه أمسك.

لا يزال العبد بخير ما إذا قال قال لله، وإذا عمل عمل لله.

* كنا نحدث أنه من عيَّر أخاه بذنب قد تاب إلى الله منه، ابتلاه الله عز وجل به.

* أحب العباد إلى الله الذين يحببون الله إلى عباده، ويعملون في الأرض نُصحاً.

* كانوا يقولون: أفضل أخلاق المؤمنين العفو.

* إذا دخلت الرشوة من الباب، خرجت الأمانة من النافذة!

* ليس العجب لمن هلك كيف هلك، ولكن العجب لمن نجا كيف نجا!!

* ما الدنيا كلها، أولها وآخرها، إلاَّ كرجل نام نومة، فرأى في منامه بعض ما يحب، ثم انتبه!

* نضحك، ولعل الله قد اطلع على بعض أعمالنا فقال: لا أقبل منكم شيئاً.

* اصحب الناس بما شئت أن تصحبهم، فإنهم سيصحبونك بمثله.

* باب واحد من العلم أتعلمه، أحبُّ إليَّ من الدنيا وما فيها.

* كان الحسن كثيرا ما يردد: اللهم لك الحمد على حلمك بعد علمك، ولك الحمد على عفوك بعد قدرتك.

• • •

أسلوبه في الدعوة

ومن المفيد ذكره هنا أنه قُدِّمت رسالة عالمية في سيرة ودعوة هذا التابعي الجليل[1] .. ويقول صاحبها مبيناً أسلوب الإمام الحسن في الدعوة الإسلامية:

يتميز أسلوب الحسن في خطبه ومواعظه ورسائله بكثرة الحذف، والاكتفاء بأقل قدر ممكن من الكلام، وكثرة الصيغ الاستفهامية، وقصر الفقرات، والمزاوجة بين الأسلوب الخبري والإنشائي، ووفرة أدوات التوكيد، والتكرار اللفظي، وعدم الربط بين الفقرات

---

(١) الأُطروحة بعنوان «الحسن البصري من عمالقة الفكر والزهد والدعوة في الإسلام»، ومؤلفها هو الأستاذ مصلح سيد بيومي.

غالباً، فتبدوا كل فقرة موعظة مستقلة بذاتها. هذا إلى كثرة ورود التحذير والإغراء فيه، والقسم.. فمما قاله: «يا ابن آدم، بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعاً، ولا تبع آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعاً. يا ابن آدم، إذا رأيت الناس في الخير فنافسهم فيه، وإذا رأيتهم في الشر فلا تغبطهم به»[1].

كما يتميز أسلوبه بكثرة الالتفات الجريء الحاد المفاجيء السريع، وكثرة الاقتباس من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، والتمثل ببعض الحكم، وبأقوال الصالحين، وخاصة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

ويظهر من أسلوبه اهتمامه بالأفكار والمعاني، لأنها هي التي تدخل في القلوب دون

---

(١) كلام الإمام الحسن المحصور بين علامتي تنصيص موجود في البيان والتبيين للجاحظ ٣/ ١٣٢، بتحقيق عبد السلام هارون، ط ٢ ــ القاهرة، ١٣٨٠هـ.

استئذان، وهذا لا يجعله يهتم كثيراً بالزخرف اللفظي، ولذا كان الحسن لا يتكلف السجع أبداً.

كما يتميز أسلوبه بالحدة في اللفظ، والاندفاع في التعبير. ومواعظه تبعث في نفوس مستمعيه النفرة من الدنيا والزهد في حطامها.. فما كانوا ينصرفون من حلقته إلاَّ بقلوب واجفة، وعيون دامعة.

وكان ـــ يرحمه الله ـــ يركز في دعوته على حقيقة الموت، والتزود للآخرة، وتقوية الوازع الديني في الفرد، والحث على مكارم الأخلاق، والتمسك بكتاب الله والعمل به.

محمدخير يوسف

جمادى الأولى ١٤١٤هـ

ثبت المراجع

ـ تهذيب الكمال في أسماء الرجال/ أبو الحجاج يوسف المزي؛ حققه وضبط نصه وعلق عليه بشار عواد معروف ـ بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤١٣هـ.

ـ الحسن البصري: من عمالقة الفكر والزهد والدعوة في الإسلام/ مصلح سيد بيومي ـ القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٤٠٠هـ.

ـ حلية الأولياء/ أبو نعيم الأصبهاني ـ بيروت: دار الكتب العلمية، د. ت.

ـ الرقة والبكاء/ ابن أبي الدنيا؛ تحقيق محمد خير يوسف ـ الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤١٤هـ.

ـ الزهد/ أحمد بن حنبل؛ حققه وقدم له وعلق عليه محمد جلال شرف ـ بيروت: دار النهضة العربية، ١٤٠١هـ.

ـ سير أعلام النبلاء/ شمس الدين الذهبي؛ تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرين ـ بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٠١ ـ ١٤٠٩هـ.

ـ صفة الصفوة/ عبد الرحمٰن بن الجوزي؛ حققه وعلق عليه محمود فاخوري؛ خرَّج أحاديثه محمد رواس قلعجي ـ ط ٣، مصححة ومنقحة ومزيدة ـ حلب: دار الوعي، ١٤٠٥هـ.

ـ الطبقات الكبرى/ محمد بن سعد ـ بيروت: دار صادر: دار الفكر، د. ت.

• • •

الفهرس

الموضوع	الصفحة
جملة من مواعظه	٥
طرف من سيرته	١٣
قالوا في هذا الإمام	٢١
تجارب وعبر	٢٥
أسئلة وأجوبتها	٢٩
البكّاء	٣٥
وفاته	٤١
درر من حكمه	٤٣
أسلوبه في الدعوة	٤٧
ثبت المراجع	٥١

● ● ●

وقد روي أن أعرابياً سأل أهل البصرة:

من سيدكم؟

قالوا: الحسن.

قال: بم سادكم؟

قالوا: احتاج الناس إلى علمه، واستغنى هو عن دينارهم.

فقال الأعرابـــي: ما أحسن هذا.